ثالثاً
سورة المُمْتَحَنَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ
وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ
إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠
أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن
يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ
تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ
قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ
لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا
وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ
ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ
وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ
عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ

إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ
وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا
تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ
ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ
ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ
وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ
ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣

بين يَدَيِ التّفسير

(١)

((نَهْيُ المؤمنين عن اتّخاذ المشركين أَوْلِياءَ ، وَعذابُ من يفعل ذلك))

الآيات (١-٣)

يأيّها الّذين آمنوا بي وبحبيبي الّذي أوحيت إليه القرآن الكريم الّذي تبيّنه السّنّة النّبويّة المطهّرة ، لا تتّخذوا عدوي المشرك وعدوّكم الّذي يتربّص بكم الدّوائر أولياء وأصدقاء ونُصَحاء ، توصلون إليهم المودّة في هيئة إفشاء سرّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي خصّكم به وذلك بعزمه على غزو قريش الّتي نَقَضَتْ عهدها مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في صلح الحديبية فساعدت سراً وليلاً بني بكر حلفاءها ضدّ خزاعة حلفاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . لا تتّخذوهم أولياء بإفشاء سرّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على نحو ما فعل حاطب بن أبي بَلْتَعَة رضي الله تعالى عنه ، البدريّ والصّحابيّ الجليل ، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ بتوحيد الله تعالى ، وبِعْثَةِ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، وبالقرآن الكريم . لقد كفروا وهاهم أولاء يُخْرِجُون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكّة المكرّمة ويخرجونكم يا صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأن تؤمنوا بالله تعالى ربّكم . لا تتّخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم من دياركم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي . لا تتّخذوهم أولياء تُسِرُّون إليهم بالمودّة في مثل خطاب حاطب رضي الله تعالى عنه الّذي أَطْلَعَ الله تعالى عليه نبيّه صلّى الله عليه وسلّم فاستردّه عليه الصّلاة والسّلام من المرأة الّتي كانت تَحْمِلُهُ وتُخْفِيه في ضَفائرها بعد أن قَطَعَتْ به بعض الطّريق ، وأنا أعلم بكلٍّ ما أخفيتم وبكلّ ما أعلنتم . ومن يفعل ذلك منكم مستقبلاً فقد ضلّ سواء السّبيل الموصل

إلى جنّات النّعيم . إنّهم إن يظفروا بكم أيّها المؤمنون بكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم بالسّوء أيديهم ضرباً وقتلاً ، وألسنتهم سبّاً وشتماً ، وودّوا لو تكفرون فتكونون مثلهم مشركين بالله تعالى . لن تنفعكم يا من تُسِرُّون إلى الكفّار بالمودّة أرحامكم ولا أولادكم الّذين تريدون وصول نفع الكفّار إليهم . يوم القيامة يَفْصِلُ الله تعالى بينكم ويقضي بالحقّ . والله تعالى بما تعملون بصيرٌ فلا يخفى عليه تعالى شيءٌ منها .

(٢)

((كانت للمؤمنين أُسْوَةٌ حسنةٌ في إبراهيم عليه السّلام إلاّ في استغفاره لأبيه المشرك))

الآيات (٤-٦)

قد كانت لكم أيّها المؤمنون الّذي أَسَرُّوا للكافرين بالمودّة أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء وفي الّذين معه من المؤمنين حين قالوا لقومهم الكفّار إنّا برءاء منكم وممّا تعبدون من دون الله تعالى من أصنام وأوثانٍ ، كَفَرْنا بكلّ عَلاقةٍ تربطنا بكم بسبب شرككم ، وظهر جليّاً بيننا وبينكم العداوة والنّفور القلبيّ الشّديد أبداً حتّى تؤمنوا بالله تعالى وَحْدَهُ لا شريك له فتكونوا لنا إخواناً في الدِّين . لقد كانَتْ لكم أيّها المؤمنون أُسْوَةٌ حسنةٌ فيهم إلاّ قول إبراهيم عليه السّلام لأبيه المشرك آزر لأستغفرنّ لك ربّي وما أملك لك من الله تعالى من شيءٍ إن أراد عزّ وجلّ أن تموت مشركاً وتدخل النّار وبئس القرار ، فليس لكم أسوةٌ في استغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه المشرك . وأنتم مَنْهِيُّون عن اتّخاذ عدوّي وعدوّكم أولياء توصلون إليهم المَوَدَّة . لقد استمرّ إبراهيم عليه السّلام والّذين معه يدعون الله تعالى قائلين: يا ربّنا عليك توكّلنا واعتمدنا، وإليك أَنَبْنا ورَجَعْنا ،

وإليك المصير يوم القيامة للحساب والجزاء . يا ربّنا لا تجعلنا فتنةً للّذين كفروا بانتصارهم علينا فيسبق إلى فهمهم أنّهم انتصروا علينا لأنّهم على الحقّ ونحن على الباطل ، واغفر لنا ربّنا ذنوبنا . إنّك أنت العزيز الّذي بيدك ملكوت كلّ شيء ، الحكيم في صنعتك وفي كلّ شيء . لقد كان لكم أيّها المؤمنون أسوةٌ حسنةٌ فيهم، وقدوةٌ طيّبةٌ لمن كان يرجو ثواب الله تعالى في الأولى والآخرة ، وجنّات النّعيم في اليوم الآخر . ومن يُعْرض عن ذكرى فأنّ الله تعالى هو الغنيّ عن الخلق المحمود على كلّ حال .

(٣)

((الله تعالى قديرٌ على أن يجعل مودّةً بين المسلمين وبين المشركين بأن يُسْلِمُوا . والمُسْلِمُون منْهِيُّون عن اتّخاذ الّذين قاتلوهم في الدِّين أولياء))

الآيات (٧–٩)

عسى الله تعالى أن يجعل بينكم أيّها المؤمنون وبين الّذين عاديتم من مشركي مكّة ومن شاكلهم مودّةً ومحبّةً بعد العداوة والبغضاء . والله تعالى قديرٌ على ذلك . والله تعالى غفورٌ لمن استغفره بإخلاص ، رحيمٌ به أن يعذّبه بعد أن قَبِلَ توبته . لا ينهاكم الله تعالى أيّها المؤمنون عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ، ولم يخرجوكم من دياركم ومساكنكم ، أن تحسنوا إليهم ، وتكونوا عادلين معهم . إنّ الله تعالى يحبّ الّذين يعدلون مع الآخرين . إنّما ينهاكم الله تعالى عن الّذين قاتلوكم في الدّين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم من دياركم مثل كفّار قريش أن تتّخذوهم أولياء وأصدقاء . والّذين يتخذونهم أولياء وأصدقاء فأولئك هم الظّالمون الّذين ظلموا أنفسهم وظلموا إخوانهم في العقيدة ،

فاستحقّوا من الله تعالى العذاب الأليم والأخذ الشّديد . إن عليكم أيّها المؤمنون أن تأخذوا حذركم .

(٤)

((المؤمنات مستثنيات من شروط الحديبية ، وأحكامٌ في النّكاح ، وشروط بيعة النّساء ، ونَهْيُ المؤمنين عن اتّخاذ المغضوب عليهم أولياء))

الآيات (١٠-١٤)

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ بعد صلح الحديبية الّذي كان بينكم وبين مشركي قريش فاختبروا إيمانهنّ . الله تعالى أعلم بحقيقة إيمانهنّ وبالباعث لهنّ على الهجرة . فإن عَلِمْتُمُوهنّ في حدود اجتهادكم مؤمناتٍ هاجَرْنَ لله تعالى ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم فلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكفّار استثناءً من الله تعالى لهنّ من شرط الحديبية بأن يُعيدَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المشركين كُلَّ من جاء من المشركين إليه ولو كان قد اعتنق دين الإسلام . لاهنّ حلٌّ للمشركين زوجات ، ولا هم يحلّون لهنّ أزواجا . وأعطوا الأزواج المشركين ما أنفقوا من مهور للزّوجات اللّاتي أسلمن وهاجرن . ولا حرج عليكم ولا ذنب أن تتزوّجوهنّ إذا أعطيتموهنّ مهورهنّ وحقّقتم كلّ شروط النِّكاح من انقضاء العِدَّة والوليّ وغير ذلك. ولا تمسكوا أيّها المؤمنون بنكاح الزّوجات الكافرات اللّاتي ارتددن وأصررن على الشّرك ولحقن بالمشركين . واسألوا ما أنفقتم من مهر واطلبوه ممّن تزوّجهنّ من المشركين . ولْيسْأَلِ المشركون ما أنفقوا من

مهر على الزّوجات اللّاتي آمنّ وهاجرن وتزوّجن وليطلبوا المهر من الزّوج المُسْلِم . ذلكم حكم الله تعالى يحكم بينكم في الزّوجات اللّاتي أسلمن وتزوّجن المسلمين ، وفي الزّوجات اللاّتي ارتددن وتزوّجن الكافرين . والله تعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، حكيمٌ في أحكامه وفي كلّ شيء . وإن فاتكم أيّها المؤمنون شيءٌ من أزواجكم إلى الكفّار الّذين تزوّجوهنّ ورفضوا إعطاءكم المهور الّتي دفعتموها لأزواجكم من قَبْلُ فعاقبتم أولئك المشركين أو غيرهم ، وغنمتم ، فأعطوا أيّها الأولياء من تلك الغنيمة الأزواج الّذين ذَهَبَتْ زوجاتهم مرتدّات وتَزَوَّجْنَ المشركين مثلما أنفقوا على أولئك الزّوجات من مهر. واتّقوا الله تعالى الّذي أنتم به مؤمنون ، وله موحّدون .

وأنت أيّها النّبيّ الكريم ، والرّسول العظيم ، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألاّ يشركن بالله تعالى شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهنّ خوف الفقر الواقع أو المتوقّع وخوف العار على نحو وأد أهل الجاهليّة للبنات ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ فيلحقن بأزواجهنّ الأولاد الّذين ليسوا من آبائهم بل عن طريق السّفاح والعياذُ بالله ولا يعصينك في معروفٍ شرعاً وعقلاً كالنّياحة وشَقِّ الثّياب وجَزِّ الشّعر والدُّعاء بالوَيْل والثُّبور وما إلى ذلك فبايعهنّ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، واستغفر لهنَّ الله تعالى . إنّ الله تعالى غفورٌ رحيم . وهذا الأمر للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يدخل فيه المهاجرات الممتَحَنات المُخْتَبَرَات .

وتُخْتَمُ السُّورَةُ الكريمة بنهي المؤمنين عن أن يتّخذوا قوماً غضب الله تعالى عليهم من مشركين ومشركات ويهود ونصارى وسائر الكفّار أولياء وأصدقاء ونُصَحاء . إنّ أولئك المغضوب عليهم الّذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر قد يَئِسُوا من كلّ

خيرٍ في الآخرة لأنّهم لا يؤمنون بالبعث أصْلاً كما يئس الكفّار من أصحاب القبور الّذين لم يؤمنوا بالبعث ولم يعملوا ليوم القيامة وبالتّالي يئسوا من كلّ خير متعلِّقٍ بالبعث والحساب والجزاء يوم القيامة . وإن المشركات والمرتدّات من هؤلاء المغضوب عليهم الّذين يئسوا من كلّ خير في الآخرة ، والعياذُ بالله .

التّفسير

(١)
((نَهْيُ المؤمنين عن اتّخاذ المشركين أولياء ، وعَذابُ من يفعل ذلك))
الآيات (١-٣)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

سبب النّزول :

رَوَى البخاريّ في صحيحه[١] عن عبيد الله بن أبي رافع ، كاتب عليّ[٢] قال : سمعت عليّاً ﷺ يقول : بَعَثَنِي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنا والزّبير والمقداد فقال : انطقوا حتّى تأتوا رَوْضَةَ خاخ[٣] فإنّ بها ظَعِينَةً[٤] معها كتاب فخذوا منها . قال فانطلقنا تَعَادَى[٥] بنا خَيْلُنا حتّى أتينا الرَّوْضَةَ ، فإذا نحن بالظّعِينَةِ . قلنا لها : أَخْرِجِي الكتاب . قالت : ما معي كتاب. فقلنا لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لَنُلقينّ الثّياب . قال فأخرجته من عِقاصها[٦]فأتينا به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإذا فيه: مِنْ حاطِب بن

---

(١) فتح الباري ٧/ ٥١٩ حديث رقم ٤٢٧٤ وانظر ص ٣٠٤ حديث رقم ٣٩٨٣ و ٨/ ٦٣٣ حديث رقم ٤٨٩٠ وانظر صحيح مسلم ٤/ ١٩٤١ حديث رقم ٢٤٩٤ .

(٢) هذه الزّيادة من حديث رقم ٤٨٩٠ فتح الباري ٨/ ٦٣٣ .

(٣) موضع على اثني عشر ميلاً من المدينة .

(٤) أي امرأة . وأصلها الهودج لأنّها تكون فيه .

(٥) أصلها تتعادى أي تتسابق وتجري .

(٦) أي من ذوائبها المضفورة جمع عِقْصَة .

أبي بَلْتَعَة[1] ، إلى ناسٍ بمكّة من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلّى الله عليه . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تَعْجَلْ عليّ . إنّي كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش – يقول : كنت حَلِيفاً – ولم أكن من أَنْفُسِها ، وكان من مَعَك من المهاجرين مَنْ لهم بها قراباتٌ يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذا فاتني ذلك من النّسَب فيهم أن أتّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي . ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رِضاً بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أما إنّه قد صَدَقكُمْ . فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال إنّه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعلّ الله اطّلع على من شهد بدراً قال : اعملوا ما شئتم فقد غَفَرْتُ لكم . فأنزل الله السّورة: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ –إلى قوله – فقد ضلّ سواء السّبيل﴾ .

وقد نَصَّ الإمام النّوويّ في ترجمته[2] على أنّه رضي الله تعالى عنه نزلت فيه الآيتان الكريمتان الأوليان ، وعلى أنّ الحقّ جلّ وعلا شَهِدَ لَهُ بالإيمان في الآية الكريمة الأولى .

أولياء : أنصارا[3] وأصدقاء وأخلاّء[4]

تلقون : توصلون[5]

---

(١) ترجمته في تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووي ١/ ١٥١ .
(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٥١ .
(٣) تفسير الطبري ٢٨/ ٣٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ١١١ .
(٥) الجلالين .

وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ : وقد كفر هؤلاء المشركون بالله ورسوله وكتابه الّذي أنزله على رسوله[1] .

وإيّاكم : ويخرجونكم أيضاً من دياركم وأرضكم[2]

أن تؤمنوا بالله ربّكم : لأن آمنتم بالله ربّكم[3]

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم وبما أنزل على رسوله من وحي ، لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم من مشركي مكّة أولياء وأصدقاء ، تلقون إليهم بالمودّة ، وتوصلون إليهم المحبّة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ ، فلم يؤمنوا بالله وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن الكريم الّذي تبيّنه السّنّة النّبويّة المطهّرة . يخرجون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ويخرجونكم يا صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مكّة المكرّمة لأن تؤمنوا بالله تعالى ربّكم ولأن تقولوا ربّنا الله تعالى ، ولا ذنب لكم غير ذلك . إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ودخول جنّتي فلا تتّخذوهم أولياء تُسِرُّون إليهم بالمودّة في هيئة مثل هذا الكتاب الّذي بعثه حاطبٌ إليهم . وأنا أعلم بكلّ ما أخفيتم وبكلّ ما أعلنتم . ومن يفعل ذلك منكم بعد نَهْيِي لكم فقد ضلّ سواء السّبيل ومَحَجَّتَهُ الموصلة إلى جنّات النّعيم .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٣٧ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٣٧ .

(٣) تفسير الطّبري ٢٨/ ٣٧ .

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

إن يثقفوكم : إن يَظْفرُوا بكم[1] .

إن يَظْفَر المشركون بكم يا من أسررتم إليهم بالمودّة يكونوا لكم أعداءً سافري العداوة ، ويبسطوا إليكم بالسّوء أيديهم ضرباً وقتلاً ، وألسنتهم سبّاً وشتماً . وودّوا لو تكفرون مثلهم فتكونون في حَمْأَةِ الشّرك سواءً .

(١) الجلالين .

لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣

لن تنفعكم عند الله تعالى أرحامكم ولا أولادكم لأنّهم مشركون . يوم القيامة يفصل عزّ وجلّ بينكم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء . والله تعالى بما تعملون أيّها المؤمنون وأيّها النّاس بصير ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

(٢)
((كانت للمؤمنين أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيم عليه السّلام
إلاّ في اسْتغْفاره لأبيه المشرك))
الآيات (٤-٦)

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ
وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ
ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ
إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن
شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَة : قدوة حسنة[١]

والّذين معه : وأتباعه الّذين آمنوا معه [٢]

إنّا برءاء منكم : جمع بريء كظريف[٣]

والبغضاء : البغض نِفار النّفس عن الشّيء الّذي ترغب عنه وهو ضدّ الحبّ ، فإنّ الحبّ انجذاب النّفس إلى الشّيء الّذي ترغب فيه[٤]

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٣ .
(٣) الجلالين .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "بغض" ١/ ٧٠ .

إلاّ قول إبراهيم لأبيه : قد كانت لكم أسوةٌ حسنة إلاّ في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك[1]

ربّنا لا تجعلنا فتنةً للّذين كفروا : يا ربّنا لا تجعلنا فتنةً للّذين كفروا بك فجحدوا وحدانيّتك وعبدوا غيرك بأن تسلّطهم علينا فيروا أنّهم على حقٍّ وأنّا على باطل فتجعلنا بذلك فتنةً لهم[2]

قد كانت لكم أيّها المؤمنون قُدْوَةٌ طيّبةٌ في إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء ، وفي الّذين معه عليه السّلام وعلى ملّته ، حين قالوا لقومهم الّذين كفروا إنّا بريئون منكم وممّا تعبدون من دون الله تعالى من الأصنام والأوثان . كفرنا بكم وجحدنا كل عَلاقةٍ تَرْبِطُنا بكم ، وظهر بيننا وبينكم العداوة السّافرة ، والنّفور الشّديد منكم والدّائم ، حتّى تؤمنوا بالله تعالى وَحْدَهُ دون سواه .

لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ إلاّ في قول إبراهيم عليه السّلام لأبيه المشرك لأستغفرنّ لك ربّي الله تعالى . وما أملك لك من الله تعالى شيئاً إن أراد عزّ وجلّ أن تسْتَمِرَّ على شركك وتدخل النّار وبئس القرار .

واستمرّ إبراهيم عليه السّلام وأتباعه المؤمنون يدعون الله تعالى قائلين : ربّنا عليك توكّلنا في كلّ أمورنا ، وإليك أنبنا ورجعنا تائبين ، نادمين ، مستغفرين ، وإليك يا ربّنا المصير والمرجع يوم القيامة للحساب والجزاء ، الثّواب أو العقاب . يا ربّنا لا تجعلنا فتنةً للّذين كفروا بأن يَظْفَرُوا بنا وينتصروا علينا فيستقرّ في نفوسهم وفي نفوس كلّ الكفّار

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤١ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٢ .

أنّهم على الحقّ وأنا على الباطل وإلاّ لَنَصَرَنا الله تعالى عليهم ، واغفر لنا يا ربّنا ذنوبنا . إنّك أنت العزيز في ملكك وقهر أعدائِك ، الحكيم في صنعتك وتقديرك وتدبيرك وفي كلّ شيء .

لقد كان لكم أيّها المؤمنون فيهم قُدْوَةٌ طيّبة تقتدون بها وأُسْوَةٌ حَسَنَة يتأسّى بها من كان يرجو ثواب الله تعالى العاجل والآجل ، ومن كان يرجو الفوز العظيم في اليوم الآخر وعمل لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

ومن يُعْرض عن آيات الله تعالى البيّنات الّتي تبيّنها سنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فإنّ الله تعالى دائماً وأبداً هو الغنيّ عن الخلق ، المحمود في كلّ الأحوال .

وإنّما كان استغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه المشرك لأنّه عليه السّلام وعد أباه أن يستغفر الله تعالى له . ولعلّ هذا الوعد من إبراهيم عليه السّلام في مقابل الوعد من آزر أبي إبراهيم عليه السّلام بأنّه سوف يُسْلِم ، فلمّا تبيّن إبراهيم عليه السّلام إصرار أبيه على الشّرك تبرّأ منه . جاء في سورة مريم[1] على لسان إبراهيم عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفِيّا ﴾ وجاء في سورة التّوبة[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن مَوْعِدَةٍ وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه . إنّ إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾ .

---

(١) الآية ٤٧ .

(٢) الآية ١١٤ .

(٣)

((الله تعالى قديرٌ على أن يجعل مودّةً بين المسلمين وبين المشركين بأن يُسْلِموا . والمسلمون مَنْهِيُّونَ عن اتّخاذ الّذين قاتلوهم في الدّين أَوْلِياء))

الآيات (٧ – ٩)

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧

عسى : عسى لغةً طمعٌ وترجّي (١) .

عسى الله تعالى القادر على كلّ شيء الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء أن يجعل بينكم أيّها المؤمنون وبين الّذين عاديتم من مشركي مكّة محبّةً بَدَلَ الكُرْه ومودّةً بَدَل البغضاء . والله تعالى قديرٌ على كلّ شيء . والله تعالى غفورٌ لمن سأله المغفرة ، رحيم بمن تاب توبةً نصوحاً وقبِل توبته . إنّ على كفّار مكّة ومن شاكَلَهُمْ أن يعودوا إلى الله تعالى ويتوبوا توبةً نصوحاً ويكونوا جنداً لله تعالى .

لقد تحقّق بفضل الله تعالى هذا الرّجاء فتَحَوَّلَتِ العداوة صداقة ، وصارت البغضاء مَوَدَّة . ولله الحمد والمِنَّة .

---

(١) مفرادات الرّاغب الأصفهاني : "عسى" ٢/ ٤٣٥ وجاء في المحرّر الوجيز ١٥/ ٤٩٠ : "وعسى من الله واجبة الوقوع إن شاء الله تعالى " .

لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

أن تبرّوهم : أن تحسنوا إليهم[1] .

وتقسطوا إليهم : وتعدلوا فيهم[2]

لا ينهاكم الله تعالى يا أيّها المؤمنون عن الكافرين الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تحسنوا إليهم وتعدلوا فيهم . إنّ الله تعالى يحبّ العادلين .

إنّما ينهاكم الله تعالى يا أيّها المؤمنون عن الكافرين الّذين قاتلوكم في الدّين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا أعداء الله تعالى وعاونوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم أن تتخذوهم أولياء ، وأصدقاء ، ونصراء ، ونصحاء . ومن يتّخذهم أولياء له من دون المؤمنين فأولئك هم الظّالمون الّذين ظلموا المؤمنين ، وظلموا أنفسهم ، وأساءوا العمل والتّقدير ، فلينتظروا عذاب الله تعالى الأكيد ، وأخذه الأليم الشّديد .

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٦ وتفسير الطّبري ٢٨/ ٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٦ وتفسير الطّبري ٢٨/ ٤٣ .

(٤)

((المؤمنات مُسْتَثْنَياتٌ من شروط الحديبية ، وأحكامٌ في النّكاح ، وشروط بيعة النّساء ، ونهي المؤمنين عن اتّخاذ المغضوب عليهم أولياء))

الآيات (١٠-١٤)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾

سبب النّزول :

كان من شروط صلح الحديبية في شهر ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة بين النّبي صلّى الله عليه وسلّم وبين مشركي قريش الشّرط التّالي : "على أنّه لا يأتيك منّا أحد ، وإن كان على دينك ، إلاّ رددته علينا" [1] ثمّ استثنى الله من ذلك النّساء بشرط الامتحان[2] عن قتادة أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان يمتحن من هاجر من النّساء : بالله ما خرجت إلاّ رغبةً في الإسلام وحبّاً لله ورسوله[3] وروي أنّ الّذي كان يحلّفهنّ عن أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم له عمر بن الخطّاب[4] وَرَوى البخاريّ في

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٧ وانظر ص١١٨ وانظر أسباب النزول ٤٨٩ .
(٢) فتح الباري ٨/ ٦٣٦ .
(٣) فتح الباري ٨/ ٦٣٧ وانظر تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٨ .

صحيحه[1] عن عروة بن الزّبير أنّ عائشة ﵂ زوج النّبي صلّى الله عليه وسلّم أخبرته أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى : ﴿ يا أيّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك _ إلى قوله – غفورٌ رحيم ﴾ قال عروة قالت عائشة : فمن أقرّ بهذا الشّرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد بايعتك ، كلاماً ، ولا والله ما مسّت يده يد امرأةٍ قطّ في المبايعة . ما يبايعهنّ إلاّ بقوله : قد بايعتك على ذلك .

ولا يخفى التّرابط في سبب نزول الآيات الكريمات من العاشرة إلى الثّانية عشرة .

وآتوهم ما أنفقوا : وأعطوا المشركين الّذين جاءكم نساؤهم مؤمنات إذا علمتموهنّ مؤمناتٍ فلم ترجعوهنّ إليهم ما انفقوا في نكاحهم إيّاهنّ من الصّداق[2] .

أجورهن : مهورهنّ[3]

ولا تمسكوا بعصم الكوافر : العِصَم جمع عِصْمة ، وهي ما اعتصم به من العَقْد والسّبَبَ[4] والكوافر جمع كافرة[5] وهذا تحريمٌ من الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهنّ[6] .

واسألوا ما أنفقتم : واسألوا أيّها المؤمنون الّذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أ نفقتم على أزواجكم اللّواتي لحقن بهم من الصَّداق من تزوجهنّ

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٣٦ حديث رقم ٤٨٩١ .
(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٥ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٧ .
(٥) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٧ .
(٦) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٠ .

منهم[1] .

وليسألوا ما أنفقوا : وليسألكم المشركون منهم الّذين لحق بكم أزواجهم مؤمناتٍ إذا تزوّجن فيكم من تزوّجها منكم ما أنفقوا عليهنّ من الصّداق[2] .

وإن فاتكم شيءٌ من أزواجكم إلى الكفّار : وإن سبقكم وانفلت منكم[3] عن الزّهريّ قال : أَقَرَّ المؤمنون بحكم الله وأَدَّوْا ما أمروا به من نفقات المشركين الّذين أنفقوا على نسائهم وأَبَى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين فأنزل تعالى الآية الكريمة[4] .

فعاقبتم : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم[5] .

فآتوا الّذين ذهبت أزواجهم مثلما أنفقوا : عن ابن عبّاس : يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفّار أمر له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يُعْطَى من الغنيمة مثل ما أنفق[6] .

يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى إذا جاءكم المؤمنات بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم مهاجراتٍ بعد صلح الحديبية الّذي كان في شهر ذي القعدة سنة ستٍّ من الهجرة ، والّذي كان من شروطه أنّ كلّ من جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المشركين ولو كان مسلماً يردّه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إليهم فاستثنى الحقّ جلّ

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٨ .
(٢) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٨.
(٣) الكشّاف ٣/ ٢٢٣ .
(٤) تفسير الطّبري ٢٨/ ٤٩ .
(٥) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢١ .
(٦) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٠ .

وعلا النّساء بشرط الامتحان . وبهذا تكون الآية الكريمة مخصِّصة للسّنّة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك[1] إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ . الله تعالى أعلم بحقيقة إيمانهنّ . فإن علمتموهنّ في حدود اجتهادكم مؤمنات فلا تَرْجِعُوهنّ إلى الكفّار ، ولا تردّوهنّ إلى المشركين . لا هنّ حلٌّ لهم زَوجات ، ولا هم يحلّون لهنّ أزواجا . وأعطوا الأزواج ما أنفقوا على زوجاتهم وأَعْطَوْا من صَداق .

ولا حَرَجَ عليكم ولا إثم أن تنكحوهنّ أيّها المؤمنون وتتزوّجوهنّ بشرطه من انقضاء العِدَّة والوليّ وغير ذلك[2] إذا أعطيتموهنّ مهورهنّ . ولا تمسكوا أيّها المؤمنون بعصم الزّوجات الكافرات ولا تستمرّوا معهنّ أزواجاً لهنّ . واسألوا ما أ نفقتم من مهرٍ أولئك المشركين الّذين تزوّجوا زوجاتكم المرتدّات . وليسأل المشركون المسلمين الّذين تزوّجوا زوجاتهم اللاّتي أسلمن وهاجرن ما أنفقوا على زوجاتهم من مهر . ذلكم حكم الله تعالى يحكم بينكم أيّها المؤمنون وأيّها المشركون . والله تعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيء، حكيمٌ في أحكامه وفي كلّ شيء .

وإن فاتكم أيّها المؤمنون شيءٌ من أزواجكم ومن مهورهنّ إلى الكفّار الّذين لم يلتزموا بحكم الله تعالى ولم يعطوا المؤمنين مهور أزواجهم المرتدّات اللاّتي تزوّجهنّ الكفّار ، وأَصَبْتُمْ غنيمةً من الكفّار فأعطوا الأزواج الّذين ذهبت أزواجهم إلى الكفّار مرتدّات وتزوّجهن الكفّار ، وآتوهم مثلما أنفقوا على الزّوجات من مهر .

واتّقوا الله تعالى الّذي أنتم به مؤمنون ، وخافوه في السِّرّ والعلن ، وطبّقوا أحكامه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٠ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ : ولا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم [1]ووصف بصفة الولد الحقيقيّ فإنّ الأمّ إذا وضعته سقط بين يديها ورجليها[2]

ولا يعصينك في معروف : هو ما وافق طاعة الله كترك النّياحة وتمزيق الثّياب وجزّ الشّعور وشقّ الجيب وخمش الوجه[3] عن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿ ولا يعصينك في معروف﴾ قال : إنّما هو شرطٌ شَرَطَهُ الله للنّساء[4] وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد قرأ في عيد فطرٍ الآية الكريمة على النّساء ثمّ قال حين فرغ : أنتنّ على ذلك ؟ وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله[5] وفحوى الآية الكريمة هو الّذي أخذه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على من حضر العَقَبَة الأولى وكانوا اثني عشر رجلاً فيهم عُبادَةُ بن الصّامت ﷺ[6] .

يا أيّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله تعالى شيئاً ، ولا

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥١ .
(٢) الجلالين .
(٣) الجلالين وانظر فتح الباري ٨/ ٦٣٧ حديث رقم ٤٨٩٢ .
(٤) فتح الباري ٨/ ٦٣٧ حديث رقم ٤٨٩٣ .
(٥) فتح الباري ٨/ ٦٣٨ حديث رقم ٤٨٩٥ .
(٦) انظر فتح الباري ٨/ ٦٣٧ حديث رقم ٤٨٩٤ وتفسير ابن كثير ٨/ ١٢٤ .

يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن خشية الفقر الواقع أو المتوقّع كما يفعل أهل الجاهليّة بوأد البنات ، ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ بأن يُلْحِقْنَ بأزواجهنّ غير أولادهم ، ولا يعصينك في معروفٍ كالنِّياحة على الميّت وشقّ الثّياب ، وجزّ الشّعر ، والدّعاء بالثُّبور وما إلى ذلك . إذا بايعنك يا محمّد على هذه الأمور فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله تعالى . إنّ الله عزّ وجلّ غفورٌ رحيم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم : هم اليهود[١] والنّصارى وسائر الكفّار[٢] .

قد يئسوا من الآخرة : أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجلّ[٣] .

كما يئس الكفّار من أصحاب القبور : كما يئس الكفّار الّذين هم في القبور من كلّ خير[٤] .

يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا قوماً غضب الله تعالى عليهم أولياء لكم ونصراء وأصدقاء . وهؤلاء المغضوب عليهم وهم اليهود والنّصارى وسائر الكفّار ، قد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها كما يئس الكفّار الّذي هم في القبور من كلّ خير . لأنّهم تبيّنوا قبح حالهم وسوء منقلبهم[٥] .

---

(١) تفسير الطّبري ٢٨/ ٥٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٩ .
(٥) الكشّاف ٣/ ٢٢٤ .

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١- سورة المُمْتَحَنة من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد الهجرة[١] .

٢- عدد آيات السّورة الكريمة ثلاث عشرة آية . وعدد كلماتها ثلاثمائة وثمانٍ وأربعون كلمة . وعدد حروفها ألفٌ وخمسمائة وعشرة حروف[٢] .

٣- سورة الممتحنة في مجملها تتحدّث في مسائل وقعت بعد صلح الحديبية الّذي كان في شهر ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة حتّى فتح مكّة المكرّمة في شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة .

٤- تنهي الآية الكريمة الأولى والآية الكريمة الأخيرة من السّورة الكريمة المؤمنين عن اتّخاذ أعداء الله تعالى وأعدائهم من المشركين والمغضوب عليهم أولياء وأصدقاء . وحول هذا المحور تدور مسائل السّورة الكريمة .

٥- يقال سورة الممتحنة بكسر الحاء وبفتحها . والممتحِنة بكسر الحاء أي المختبِرة ، أضيف الفعل إليها مجازاً ، كما سمّيت سورة براءة المبعثرة والفاضحة ، لما كشفت من عيوب المنافقين . ومن قال في هذه السّورة الممتحَنة بفتح الحاء ، فإنّه أضافها إلى المرأة الّتي نزلت فيها، وهي أمّ كُلْثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط. قال الله تعالى :

---

(١) الإتقان ١/ ٤٣ والجلالين وتفسير ابن كثير ٨/ ١٠٨ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٨/ ٤٦ والمحرّر الوجيز ١٥/ ٤٨٢ والبحر المحيط ٨/ ٢٥١ وفي ظلال القرآن ٨/ ٣٥٣٥ وتفسير القرطبي ٦٥٢٨ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٨/ ٤٦ .

﴿ فامتحنوهنّ . الله أعلم بإيمانهنّ ﴾ الآية . وهي امرأة عبدالرّحمن بن عوف . وَلَدَتْ له إبراهيم بن عبدالرّحمن[1] وكانت أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاجرت بعد صلح الحديبية ، فخرج أخواها عمارة والوليد حتّى قدما على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فكلّماه فيها أن يردّها إليهما . فَنَقَضَ الله العهد بينه صلّى الله عليه وسلّم وبين المشركين في النّساء خاصّة ، ومنعهنّ أن يُرْدَدْن إلى المشركين . وأنزل الله آية الامتحان[2] وهذه الآية الكريمة هي الّتي حَرّمَت المسلمات على المشركين وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ لا هنّ حلٌّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ ﴾[3] .

٦- للمؤمنين أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم عليه السّلام وفي محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم . جاء النّصّ على إبراهيم عليه السّلام في الآيتين الكريمتين الرّابعة والسّادسة من هذه السّورة الكريمة . وجاء النّصّ على محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم في الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله اسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

٧- يصحّ أن يقال عن الآيتين الكريمتين الثّامنة والتّاسعة إنّهما في العَلاقات الدَّوْليّة ، إذ تبيّنان كيفيّة عَلاقة الدّولة الإسلاميّة بالدّول الأخرى . قال تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا

---

(١) تفسير القرطبي ٦٥٢٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١١٨ .

إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم في الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم . ومن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون﴾ .

٨- رُوِيَ أنّ هذه الآية الكريمة الثّانية عشرة نزلت يوم فتح مكّة . قال تعالى : ﴿يا ايّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروفٍ فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله . إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ فبايع رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم الرّجال على الصّفا ، وعمر يبايع النّساء تحتها عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[١] وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتعاهد النّساء بهذه البيعة يوم العيد ، كما قال البخاري[٢] وعن عبادة بن الصّامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنّا اثني عشر رجلاً . فبايعنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على بيعة النّساء ، وذلك قبل أن يفرض الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٣ وانظر فتح الباري ٨/ ٦٣٨ حديث رقم ٤٨٩٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٢٤ وانظر السّيرة النّبويّة ١/ ٤٣١ و ٤٣٣ و ٤٣٤ وفتح الباري ٨/ ٦٣٣حديث رقم ٤٨٩٤ .

٩- توحيد الله تعالى أو مسألة العقيدة المحور الّذي تدور حوله قضايا السّورة الكريمة . وسبق أن بيّنّا بين يدي تفسير السّورة الكرمية في شيءٍ من بسط القول وَحْدَةَ السّورة الكريمة عضويّاً وأخذ قضاياها برقاب بعض ودوران كلّ القضايا حول المحور وهو التّوحيد أو العقيدة . ونَوَدُّ هنا أن نبيّن في شيءٍ من الإيجاز تلك الوَحْدةَ العضويّة ودوران قضايا السّورة الكريمة حول محورها . تنهى السّورة الكريمة الّذين آمنوا عن اتّخاذ أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين أولياء وهم الّذي أرْغَمُوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين على الهجرة . إنّ إلقاء المودّة للمشركين والإسرار بها إليهم في مثل الكتاب الّذي أرسله حاطب بن أبي بَلْتَعَة رضي الله تعالى عنه والّذي أفشى فيه لمشركي قريش سرّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعزمه على فتح مكّة لنقض قريش أحد شروط الحديبية لن ينفع حاطباً ولا غير حاطب . إنّ الأقارب والأولاد لن ينفعوا من اتّخذ المشركين أولياء بسببهم . وفي يوم القيامة يفصل الله تعالى بين المؤمنين والكافرين . وإنّ للمؤمنين أسوةً حسنةً في إبراهيم عليه السّلام والّذين معه الّذين تبرّأوا من المشركين والّذين تضرّعوا إلى الله تعالى أن يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم ولا يجعلهم فتنةً للّذين كفروا . لقد كان الأَحْرَى بحاطب ومن شاكله أن يتبرّأ من المشركين لا أن يسرّ إليهم بالمودّة الّتي لن تنفعَه بل تضرّه ، لأنّ المشركين لا يرضيهم إلا ارتداد المسلمين عن دين الإسلام .

ولمّا كانت نفوس بعض المسلمين متعلّقةً ببعض الأهلين الّذين لمّا يسلموا فإنّ الحقّ جلّ وعلا هو وَحْدَه القدير على أن يجعل بين المسلمين وبين أعدائهم من مشركي قريش مودّةً بعد أن يسلموا . وبفضل الله تعالى تحقّق ذلك بعد فتح مكّة المكرّمة . وهكذا تتحقّق المودّة عن طريق التّوحيد أو العقيدة .

وإنّ الضّابط للعَلاقات الدّوْلِيَّة بين المسلمين وبين غيرهم هو التّوحيد أو العقيدة . إنّ الحقّ جلّ وعلا لا ينهانا عن الإحسان إلى من لم يقاتلنا في الدّين ولم يخرجنا من ديارنا لأنّا نقول ربّنا الله ، كما لا ينهانا عن الإقساط إليهم والعدل معهم . إنّما ينهانا الله تعالى عن موالاة الّذين قاتلونا في الدِّين ، وأخرجونا من ديارنا ، وظاهروا على إخراجنا، مثل كفّار قريش ، الّذين قاتلوا المسلمين ، وأرغموهم على الهجرة ، وأعانوا بني بكر حلفاءهم ضد خزاعة حلفاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في صلح الحديبية . إنّ نقض قريش ذلك الشّرط هو السّبب في فتح مكّة المكرّمة بإذن الله تعالى .

وإنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي يَسْتَثْنِي المؤمنات من شرط الحديبية الّذي يقضي بإعادة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من جاءه من قريش ولو كان مسلماً . وإنّ الحقّ جلّ وعلا اشترط على المؤمنين عقد امتحان للمهاجرات المسلمات لضمان الباعث لهنّ على الهجرة وهو التّوحيد أو العقيدة وليس أيّ غرضٍ دنيويّ آخر . وإنّ للاّتي علم المسلمون إيمانهنّ من المهاجرات حكماً في النّكاح خاصّاً بهنّ ، وكذلك للمرتدّات . وهذا الحكم في نكاح المهاجرات المؤمنات والمرتدّات المشركات حكمٌ مؤقّت مرتبطٌ بتلك المرحلة الزّمانيّة والمناسبة .

وإنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يبايع من جاءه من المؤمنات على مجموعةٍ من الشّروط معمّقة للتّوحيد ولمسألة العقيدة . وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتعاهد النّساء بهذه البيعة وبشروطها يوم العيد .

وكما بدأت السّورة الكريمة بنهي المؤمنين عن اتّخاذ أعداء الله تعالى وأعدائهم أولياء وأصدقاء ونصحاء ، انتهت السّورة الكريمة بهذا النّهي . إنّ الآية الكريمة الأخيرة من السّورة الكريمة تنهى المؤمنين أن يتولوّا قوماً غضب الله تعالى عليهم من مشركين ويهود ونصارى وسائر الكافرين . إنّ هؤلاء المغضوب عليهم الّذين لا يؤمنون بالبعث ولا يعملون ليوم القيامة قد يئسوا من خير الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور من خير الآخرة لأنّهم مشركون لا يؤمنون بالبعث ولا يعملون ليوم القيامة .

وهكذا تتجلّى الوحدة العضويّة للسّورة الكريمة وأخذ قضاياها برقاب بعض .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم السّبت ٣/ ١٠/ ١٤٢٣هـ

الموافق ٧/ ١٢/ ٢٠٠٢م .